

مصور اغتيال السادات يدفع ثمن أفول المجد الصحافي

مكرم جادالكريم اعتبر الصورة أساس الصحافة

إسرائيل، وكان أحد القلائل في عالم التصوير الصحافي المسموح لهم بدخول أي موقع والعمل بحرية. وأوضح أنه كان ينام في "براميل معدنية خلال العمليات العسكرية التي شارك في توثيقها، وسجل بعدسة الكاميرا كنزا من الفوتوغرافيا السرية التي لم تنشر حتى الآن". وقال السهيتي لـ "العرب"، إنه كان يعمل في يوم 6 أكتوبر سنة 1981 مصورا في رئاسة الجمهورية وخلال العرض العسكري الأخير للرئيس أنور السادات، خرجت إحدى سيارات العرض عن طريقها وهبط منها بعض القناصة واطلقوا رصاصهم على الرئيس في بضع دقائق.

وفي ذلك اليوم وقف مصور الرئاسة محمد رشوان ليلتقط صور الاغتيال، لكن رصاص الإرهابي خالد الإسلامبولي أصابه ليستشهد على الفور، وفشل باقي المصورين في تصوير الحدث، غير أن هناك اثنين فقط نجحوا في التصوير، هما رشاد القوصي ومكرم جادالكريم.

المصور حقق ثروة جيدة بسبب بيع تلك الصور للصحف العالمية، كما فاز بفضلها بعدة جوائز عالمية

تمكن الأول من تصوير بضعة ثوان فيديو للتلفزيون الألماني، لكن مكرم وقف أعلى المنصة، والنقط عددا كبيرا من الصور الفوتوغرافية للحدث، بدءا من هبوط الطائرة من سيارتهم، واقترابهم من مقعد أنور السادات وإطلاقهم الرصاص ومحاولات التصدي لهم، وسقوط الرئيس مضرجا في دماه، وتعد تلك هي الصور الوحيدة الموثقة لاغتيال السادات والتي أخذتها كل صحف العالم في ما بعد.

هناك خلاف بين شيوخ المصورين المصريين حول كيفية خروج مكرم من أرض الحدث بالصور، لأن قوات الأمن احتجزت جميع الصحافيين والمصورين بعد العملية وقامت بتفتيشهم، وذكر البعض أن الصور استبدل أفلام كاميرته بأخرى دون صور، وأخفى الأفلام في ملابسه الداخلية.

وشترت الصور تباعا في الصحف ووكالات الأنباء، وحقق مكرم ثروة جيدة بسبب بيع تلك الصور للصحف العالمية، محتفظا بأصولها لديه، وفاز بالمركز الثاني ضمن جائزة "وورد برس فوتو" من هولندا في القصة المصورة.

ذكر عمرو نبيل رئيس شعبة المصورين بنقابة الصحافيين المصريين لـ "العرب"، أن مكرم كان أول عربي يفوز بالجائزة، وعرف هواة ومحترفي التصوير في العالم العربي بالجائزة بعد فوزه لتصبح هدفا لهم، وفاز بها بعد اندلاع ثورات وانتفاضات الربيع العربي بعض الشبان الصحافيين في كل من مصر وتونس وسوريا.

واصل مكرم تألقه بعد ذلك ليفوز بجائزة النادي الصحافي الأمريكي عن نفس الصور، فضلا عن جائزة نقابة الصحافيين المصريين، إلى جانب جائزة القوات المسلحة المصرية عن أفضل صور صحافية خلال حرب البوسنة سنة 1993.

يعتبر الرجل أستاذا لأجيال العمل الصحافي في الثمانينات والتسعينات، واهتم بتخريج جيل يرى في الصحافة مغامرة تعتمد على الجرأة وحسن التدبير، قبل الاعتماد على الكتابة. وتعامل مع القصة المصورة على أنها أساس الصحافة، فالناس تحب الحكايات غالبا، والصور ضرورية للحكاية، لأن العين ترسل رسائلها الذهنية إلى المخ ليستوعب قبل القراءة. كان لامحا وامتلك سرعة بديهية، واعتاد على أن ينجح مهامه في الوقت المطلوب بأفضل طريقة ممكنة، وهو خفيف الظل، ومحب للكتابة، واحتفظ بذكاء اجتماعي أكسبه ثقة الكثير من الوزراء ورجال الدولة.

وفاة مصور حادثة اغتيال الرئيس المصري أنور السادات تفتح دفاتر التاريخ ليثبت أن الرجل تعامل مع القصة المصورة على أنها أساس الصحافة، فالناس تحب الحكايات غالبا، والصور ضرورية للحكاية، لأن العين ترسل رسائلها الذهنية إلى المخ ليستوعب قبل القراءة.

مصطفى عبيد
كاتب مصري

القاهرة - يفعل الزمن بادواته القاسية ما لا نتظر. تلك باختصار حكاية المصور الصحافي المصري مكرم جادالكريم، الذي غيحه الموت في 4 يوليو الجاري، ليتساق شباب صغار ما زالوا في خطواتهم الأولى على بلاط الصحافة عن ذلك الشخص الذي أحزن شيوخ المهنة أن يسمعو نبا رحيله، بينما هم لا يعرفون عنه الكثير.

على محرك البحث غوغل يتكشف مكرم جادالكريم رويدا، عندما نعرف أنه المصور العربي الأول الذي نال مجدا دوليا في التصوير الصحافي، وحاز جائزة "وورد برس فوتو" العالمية، لأنه وثق بكاميرته لحظات اغتيال الرئيس المصري الأسبق أنور السادات في 6 أكتوبر 1981.

كان الرجل قبل ما يقرب من أربعة عقود، ملاء السمع والبصر، فهو مصور مغامر من طراز فريد، تلهث خلفه الوكالات العالمية، وتدفع له مبالغ خيالية نظير صور مستحيلة، وتكرمه منظمات ومؤسسات في الداخل والخارج، وتعلم منه أجيال.

بين ذلك المجد والنهاية الحزينة، التي أكدت أن الناس تنسى، والقلم لا تدوم، تتوهج حكاية إنسانية فريدة لمسدع احتراف الخطر، وحاز المال والشهرة، ثم تبدل به الحال فصار ماساة تمضي على قدمين.

المشهد الأكثر قسوة لمن عرفوا الرجل جيدا في يونيو 2018. كان يجني مرسى، أحد مصوري مؤسسة أخبار اليوم المصرية من الشباب، بمضي في طريقه اليومي نحو بيته في حي الهرم، بجنوب غرب القاهرة، عندما لفت نظره وقوف رجل مسن بملاص رثة ومثسخة، له شعر كثيف، ولحية كثة، وعينين زائغتين على ناصية الطريق.

لم يكن المشهد غريبا على يحيى، فكثيرا ما يصادف سكان القاهرة مجاذيب هائمين على وجوههم كل يوم في شوارع وأزقة المدينة الصحابة. لكن الغريب أن الرجل كان يحمل في يده حذاءه متخذا به وضع التصوير، وكان يتحرك بخفة وسرعة ليلتقط صورة وهمية للمارة وسط ضحكاتهم الساخرة.

اقترب المصور الشاب من الرجل رويدا، وبدت ملامح وجهه كأنها مالوفة له، رغم اللحية وثياب الشارع، وتذكر أنه رأى صورته في مقر عمله، كان اسما شهيرا، دقق يحيى وأمعن النظر وتحقق أن الرجل الواقف أمامه هو بالفعل المصور مكرم جادالكريم، وحاول أن يتحدث إليه لكن بلا جدوى.

هاتف الشاب زملاؤه في الدار الصحافية العربية ليخبرهم أنه وجد شيخ المصورين المصريين في الشارع هائما على وجهه، فطلبوا منه الإيداع حتى يرسلوا إليه سيارة لنقله.

بدأ الوعي يتسرب رويدا إلى الرجل، وأخذ يتأمل نياحه ويتلمس باصابعه الرقيقة شعر لحيته، ربما أبصر الرجل وجهه في مرآة السيارة فانكره، لذا قال لمن معه "ماذا سأقول لمصطفى بك عندما يراني بهذه الهيئة".

بالطبع كان يقصد الصحافي الراحل مصطفى أمين مؤسس جريدة أخبار اليوم، والذي عمل تحت رئاسته لمدة طويلة، لكن ربما غاب عنه رجل وجه المسن، وكرر سؤاله وهو يطلب منهم أن يغير ملباسه، ويحلق لحيته، وأجابوه مطمئنين، قبل أن يصعد معهم دار أخبار اليوم ويشاهد على درابنها صورة الأشهر وعليها إمضاء مكرم جادالكريم.

انتعشت الذاكرة وانحصر الزهايمر أمام صدمة الذكريات، فهنا شارك في حرب اليمن سنة 1963، وهناك ذهب مع القوات المسلحة إلى سيناء مرافقا في

الرجل الذي لم يعطل حرية القول



أظهر اقتناعا بالقيم الديمقراطية

محمد شلبي
باحث تونسي في الإعلام

وإن كنا لا نعلم حقيقة ما دار بينهما فإن ما نشرته الرئاسة بعد اللقاء لا يتجاوز حدود القانون بل إن الرئيس "شدد على أن حرية الإعلام لا حدود لها سوى أخلاقيات المهنة مع وجوب احترام القانون" الملزم للقنوات جميعا. وأكد القروي ذلك الكلام لما تحدث عن "حرص الرئيس بصفته حامي الدستور والحريات، على تطبيق القانون وإيجاد الحلول اللازمة مع الهايكا" لحل مشكلة القناة.

نعلم أن ما يقال وراء الأبواب المغلقة يختلف عادة عما يُنشر غير أن مؤشرات كثيرة تؤكد حرص الباجي قائد السبسي على مراعاة الدستور والنصوص القانونية المتصلة بالحريات عامة ومنها حرية الإعلام مثل المرسوم 116. بل أكثر من ذلك اكتسب الرئيس الراحل ثقافة إعلامية واسعة قد يفترق إليها بعض المبتدئين في المهنة وأحيانا بعض الراسخين فيها.

السبسي كسر سياسته المرنة وبطبعه المرح صورة الحاكم المقدس الذي يحمل بعضا من مشروعيته بيهية مصطنعة يفرضا على الناس بالحديد والنار

وقد رأى التونسيون رأي العين بداية توديعه الدنيا، في افتتاح المؤتمر الثلاثين للاتحاد الدولي للصحافيين في تونس، قال الباجي قائد السبسي "لا نرى سبيلا آخر لتطوير العمل الصحافي وترشيده غير الالتزام بأخلاقيات المهنة ومقتضيات القانون وتفعيل آليات التعديل الذاتي". عدد قليل جدا من وسائل الإعلام التونسية والعربية نقلت تلك الجملة من كلام الرئيس رغم أنها نقلت ثلاثة أرباع ما قاله في خطابه أو أكثر.

إن المعنى المهم في تلك الجملة هو حديث قائد السبسي عن "التعديل الذاتي" كالثالث ضلع في مثلث لا يستقيم قطاع الإعلام إلا به وهو أهم الأضلع الثلاثة على الإطلاق، والأهم كلامه أنه جعل للقانون ضلعا وللمهنة ضلعين هما الأخلاقيات والتعديل الذاتي. إن إهمال عدد من وسائل الإعلام لذلك الكلام رغم أهميته يدل إما على سهو متعمد وإما على ثقافة محدودة.

وللبعض أن يرد بان للرئيس فرقا يدون له ما يقول. صحيح غير أنك لن تجد أبدا رئيس دولة مستجدا يتحدث عن التخليق الذاتي الذي هو نقض سيطرة السلطة على الإعلام بل أكثر منه لن ينادي ذلك الرئيس "بتفصيل" الهيكل المشرف على التنظيم الذاتي،

أي مجلس الصحافة، حتى لو اجتهد مساعده أيما اجتهاد في إقناعه بذلك. فالتعديل الذاتي والاستبداد خطان لا يلتقيان.

وقد يكون معظم التونسيين أحويا رئيسهم لأسباب من بينها أنه لم يكن أبدا حجر عثرة في سبيل الحريات وعلى رأسها حرية الإعلام والتعبير. وقد أقر له بذلك خصومه السياسيون منهم القيادي في حركة النهضة سمير ديلو الذي نشر تدويته بعد وفاة قائد السبسي، عنوانها الرئيس الباجي من غنائم الثورة، يفضل فيها احترام الرجل للمؤسسات قائلا إنه "أظهر اقتناعا بالقيم الديمقراطية وإيمانا بالحريات العامة والفدية وحقوق الإنسان".

لم يقاض الباجي قائد السبسي أيا من التونسيين لنقد ولا لتجريح بل صمّت عن الشتمية على الشبكات الاجتماعية في حين أن مسؤولين آخرين فعلوا. وقد حدث أن سجن ثلاثة أشخاص في مارس 2015 يعملون في قناة تلفزيونية ثم أفرج القضاء عنهم في أقل من أسبوع بعد أن سحبت الرئاسة شكواها. ولم تكن لدواعي تلك القضية صلة بحرية التعبير فقط.

بعد موت الباجي قائد السبسي عثر كثيرون عن ندمهم مما نشره من نقد لواع في شأنه. وقد يكون مرد الندم عند البعض هو الضمير المفلت بالإحساس بالذنب بعد الموت غير أن كثيرا من التونسيين ردوا على فيسبوك شعار "يمكنك شراء ضمائر بالمال تصوت لك لكن لا تستطيع شراء آناس بيكوتك بحرقه".

وقد رأى التونسيون رأي العين رئيسهم يتواصل بغفوية مع عامة الناس كالصورة التي يلاحظ فيها طفلا في شارع الحبيب بورقيبة أو كالفيديو الذي ينادي فيه إحدى العاملات التي أسرعت متخفية في حجرة من حجرات الملعب الأولمبي برادس أو كالتسامية التي يرد بها على من يدعو "بجبوج" تصغيرا للتلميح والتلذذ. وقد سمع التونسيون بعضهم في الجازة يهتفون "رحمك الله يا جببوج".

كسر الرجل سياسته المرنة وبطبعه المرح صورة الحاكم المقدس الذي يحمل بعضها من مشروعيته بيهية مصطنعة يفرضا على الناس بالحديد والنار. حلم الباجي قائد السبسي صورة الزعيم والقائد التي لا يجرؤ أحد على نقدها وقيل قانون اللعبة الديمقراطية بما فيها من نقد وتجريح، بلغا الشتم أحيانا، فترسخ في أذهان الناس أن حرية القول التي لا تفتح أبواب السجن هي مفتاح العيش الآمن.

طلع 14 يناير على الناس بحياة سياسية جديدة قوامها الدستور والحرية، وعلى رأسها حرية النشر والتعبير، عبث طريقها أناس مثل الرئيس الراحل الباجي قائد السبسي غير أنه طلع عليهم كذلك بنظام ذي منه لن ينادي ذلك الرئيس "بتفصيل" الهيكل المشرف على التنظيم الذاتي،

كان الجدل يدور حادا بين المترشح للرئاسة آنذاك الباجي قائد السبسي والصحافي محمد بوجللاب في التلفزيون التونسي عن نتائج استطلاعات الرأي في فبراير 2014. كان المترشح طلاقا مبتسما حتى قال له الصحافي "إن راشد الغنوشي صرح بان حزبكم يضع نفسه دائما في المقدمة"، فرمى أرضا بما كان يمسك به من أوراق في اتجاه الصحافي قائلا له "هذه الإحصاءات فخذا وأجبه أنت".

بروي بوجللاب أنه لاقاه بعد نحو شهر في الواقعة فقال له "بلغني أنك مستاء مني، تاكد أنني لم أقصد الإساءة إليك، في كل الأحوال أنا اعتذر لك".

ويذكر الصحافيون أنه أساء إلى الصحافية نعيمة عبدالله، في يوليو 2011 وهو رئيس حكومة. عندما خرج من جلسة صاخبة، مع الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة، سألته سؤالا تقريريا قائلة "كانت جلسة مساعلة للحوكمة" فرد متشجعا هازئا "كم سنك... أنتم في القناة الوطنية معروفون أنكم معارضة". سئل الباجي في إذاعة موزايك عن الواقعة فذكر ألا مشكلة له مع الصحافية مضييفا "جرى ما جرى والله غالب على أمره".

ويروي صحافي ممن جالسوا الرئيس السبسي كثيرا أنه يميل إلى الصحافيين المشاكسين وأنه يجابهم بتشخ أحيانا غير أنه يفضل ذلك على التملق و"اللباقة المهنية". ويذكر الصحافي النوري الصل أنه انتقد الرئيس في أول خطاب له بعد توليه الرئاسة فتلقى وإبلا من القصف من حزب النداء، وهو الحزب الذي أسسه قائد السبسي عام 2012، حتى سافر معه فاندش من قوله له "أنا مسرور بما كتبه... وذلك هو الصواب".

ورغم هذه الوقائع المشهودة وغيرها فإن هناك اتفاقا واسعا على أن علاقة الرئيس الراحل بالإعلام علاقة لا صلة لها بما كان سائدا قبل 14 يناير 2011. لقد نشر كثير من الصحافيين بعد رحيل الرئيس صورا لهم معه ترافقها عبارات الترجيح والعزاء. وإن لم تكن تلك شهادات كافية فإن الهيئة العليا المستقلة للاتصال السمعي البصري (الهايكا) عبرت في مناسبات كثيرة عن احترام الرئيس مقتضيات حرية الإعلام والاتصال في تونس.

فقد كثر هشام السنوسي، أحد الأعضاء النشيطين فيها، مرتين على الأقل أن الرئيس كان يتصل بالهيئة مستشيرا عن كل ما له صلة قانونية أو عملية بالقطاع، وذكر السنوسي في التلفزيون التونسي، يومي 27 يونيو و25 يوليو، أن الرئيس طلب الرأي في ملف قناة نسمة، بعد غلقها، أياما قبل لقاؤه نبيل القروي صاحب القناة عندما زاره شاكيا في أبريل.